أبيات المديح (٧-١٢)

المديح الثاني

العذراء والإستنارة

"افرحي يا استنارة مسارّي الثالوث"

إنّ نصوص صلوات المديح هي من أجمل وأغنى التسابيح الكنسيّة معنىً وصوراً وموضوعاً. في هذا البيت التاسع من الأربعة والعشرين بيتاً يتطرّق المرنّم إلى زيارة المجوس للعذراء أمّ الطفل. فإذ رأى المجوس (فتيان الكلدانيين) الإله المتجسّد الصائر عبداً وأدركوا سرّ مولده هتفوا نحو والدة الإله:

نحن جئنا بواسطة نجم عادي كان يدلّ على نهار طبيعيّ يدوم لساعات، لكن أنتِ نجم لفجر نهار سرّي يدوم للأبد.

أشعلتْ أرضُنا في بابل يوماً الأتونَ لتحرق الفتية الثلاثة، وأنتِ الآن بولادتكِ إله الحقّ تخمدينها؛ ولكنّك تشعلين منارة الحقيقة لكلّ من يؤمن اليوم بواسطتكِ بالثالوث الذي ظهر علانيّة بتجسّد الابن منكِ.

بولادتكِ الربّ عزلتِ الشيطان مبغض البشر، وأظهرتِ الربّ المحبّ البشر.

بكِ يا والدة الإله خلصنا من ديانة الأوثان وأُنقِذنا من رداءة أفعالها التي كانت لون تلك العبادات.

بكِ بطلت عبادة النار في الديانات، وبمولدكِ الربّ نحن نطفئ نار الأهواء والنزوات ونحيا في سلام النعمة.

ويختم المرنّم بخلاصة رائعة، بما جلبتْه ولادةُ المسيح من البتول للعالم ألا وهو الفرح والعفّة.

هذه المقارنات بين النجم الظاهر للمجوس وبين العذراء كنجم لا يغيب، وبين العبادات اللاأخلاقيّة القديمة والعبادة الجديدة بالروح والحقّ؛ بين رداءة المسلكيّات السابقة وبين الفرح والعفّة؛ كلها تعطي جمالية رائعة للتدبير الإلهيّ. ويضع المرنّم هنا كلّ هذه الصور على لسان المجوس الباحثين عن الحقائق برصد الفلك والكواكب.

من خلال كلّ هذه التسابيح الجميلة يتعرّض المرنّم في العمق إلى مسألة هامة جداً في الحياة، وهي مصادر وطرق المعرفة للحقيقة. فهناك في الترانيم، والواقع، مصدران للمعرفة؛ لدينا هنا المجوس من جهة ولدينا العذراء والدة الإله من جهة أخرى! هناك طريقة المجوس العلماء في البحث، وهناك طريقة الثالوث في الكشف عن حقائق الحياة.

لم يكن المجوس سحرة مشعوذين! لقد كانوا علماء الفلك آنذاك. ولكن كان الكون هو مصدر معرفتهم، وليس سواه. إنّهم فئة البحّاثة والعلماء الذين يفكّون الألغاز الكونيّة بحثاً عن حقائق الحياة والمستقبل. الكون بالنسبة للبحّاثة والعلماء هو مصدر المعرفة وهو أداتها وهو أيضاً غايتها. الكون هو أتوماتيكيّ الوجود والحركة والحياة. فالكون كان أزلياً بشكل ما، كمادّة غير متشكّلة وتشكّلت بعدها لربّما بانفجار كوني إلى مدارات وشموس وكواكب...؛ وعلينا فكّ ألغازه وقوانينه وأنظمته علمياً لكي نسيطر عليه ونستخدمه. ومن يسبق في هذا المجال يكون الأسبق إلى استغلال خيراته وإخضاع البشر الآخرين تحت سلطته. لأن الكون بخيراته هو الأداة للحياة بالنسبة للباحثين.

للعلم – هذه الطريقة في المعرفة – يشكّل الكون منطلق البحث وغايته. بهذا الشكل من البحث يحتل الكون مكان الله تماماً في الأديان. فبالنسبة للبحث ليس هناك أيّة يد خارجية وليس هناك أي شخص آخر يتدخل أو قوّة مثلاً توجّه، فلمثْل هؤلاء البحّاثة نظرياتٌ كهذه هي شيء من "الأوهام والأساطير الدينيّة"، سببها جهل الإنسان لتفسير أسرار الأنظمة الكونيّة. الكون هو أزليّ البداية وأبديّ النهاية، هو آليّ الوجود والحركة وهو غاية ذاته.

بينما على العكس، نتفاجأ أنّ الكتاب المقدّس والمسيحيّة يسلّطان ضوءاً آخر على الحقائق. فالكون هو خليقة الربّ الخالق. الكون هو هديّة. الكون أُعطي لبناء علاقة. لا يُفهم الكون كوجود آليّ وإنّما كنداء إلهيّ. عندما تعطي لابنك هديّة فيتناول هذا الابن الهديّة ويثبّت أنظاره فيها، ولا ينظر إليك بكلمة شكر، يكون قد جهل حقيقةَ هذه الهديّة مهما كانت هذه الأخيرة كبيرة، ويكون قد خسر ما هو أكبر، أي والده والمحبّة وغاية هذه الهديّة ومفهومها ورسالتها.

لا تنظر المسيحيّة إلى الخليقة والعلوم التطبيقية والبحث والإبداع والاختراعات نظرة سلبية، ولا يمكن لهذه أن تثير عند المسيحيّين "الغيرة" أو "الخوف" أو "العداوة"، على العكس تماماً. المسيحيّة تقدّس

هذه الطاقات والطرق للمعرفة. ولكنّها توضح أن البحث والكون على قدسيتهما لا يلغيان ولا يجب أن ينسيا حقيقة الخالق واهبهما.

فالكون هو خليقة لها سببها وكمالها وغايتها. وهذا السبب وهذه الغاية لا يفسّـــرها البحـــث العلميّ. فالعالِمُ في المسيحيّة عليه أن يكون أكثر من "باحث". العالِمُ في النظريّة الكونيّة هو من يجمـــع الكَم والنوع الأكبر من المعلومات. هكذا يكون العالِم كبيراً بقدر ما تكون خزانة معلوماته أضـــخم. وهذا ليس بالعالِم في المسيحيّة. المعرفة المعلوماتية هي غير الحكمة الحياتيّة. فلا تكفي في النابغة والعالِم معارفه بل علينا أن نرى من كلّ ذلك حكمته. فلا تشكّل لنا صورة النابغة الذي لا يعرف أن يتصرّف مثلاً بحكمة في الحياة، أو صورة العالِم الذي لا يبني عائلة كريمة، أو صورة الباحث الذي يمضي الحيـــاة مع المجاهر ولا يعرف أن يبني علاقة مع صديق، كلّ هذه الصور لا تشكل لنا المثال الحقيقيّ للإنسان.

هذه جماليات تزيد على الإنسان زينته، لكنّها لا تشكّل جوهره. فالبحث يعرّفنا عن الـــ "كيف" في الخليقة، بينما الكشف الإلهيّ يخبرنا عن الـــ "لماذا". أن نعرف كيف تدور الأرض حول الشمس هو أمر هام جداً ومقدس دينياً، ولكن ألاّ نعرف"لماذا" هو "جهالة حقيقيّة"! إذ نخسر أهمّ حقائق المعرفة. لا يمكن للكون أن يصير غاية للإنسان، إنّما الواسطة فقط. لذلك لا يمكن أن تصير أبـــداً مســـألة الـــــ "كيف" أهمّ من الـــ "لماذا". فالمعرفة الحقيقيّة لأيّ أمر تقتضي أن نعرف أوّلاً سببيّته وغايته وأن نبحث بعدها عن كيفيّته.

إنّ هذه السببيّة من حيث البداية ومن حيث النهاية، لماذا كان الكون؟ وإلى ماذا يؤول الكـــون؟ هي ليست أسئلة أقل أهمّية من: كيف يسير الكون؟ بالوقت ذاته، ليست المسيحيّة ديناً فلسفياً يـــدفع الإنسان إلى الاستسلام للجهل والكسل وعدم البحث وترميه في أسئلة فلسفية لترضي جهله. بالعكس، المسيحيّة هي ترتيب للحقائق؛ بحيث نجمع في الحياة المسألتَين بالأولويّة والتراتبيّة المطلوبة.

في جواب يسوع الشهير في التجربة على الجبل "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، إنّما بكل كلمة تخرج من فم الله"، تظهر حقيقتان. الأولى حين يضع كلمة "وحده" فيشير إلى أن الخبز أيضاً ضروريّ؛ والثانية حين يضع "بل" ليظهر أن الكلمة الإلهيّة تحتل في التراتبية الدرجة الأولى. هل الأفضل أن نختـــار

إطعام الإنسان مع حرمه حقوقه الإنسانيّة أم أن نختار – إن فُرض علينا- حرماناً في الطعام مع الحفاظ على كلّ ما هو إنسانيّ؟

الربّ يسوع يدعو إلى التوازن. أن نحفظ ما نحتاجه من الخبز: "خبزنا الضروريّ أعطنا اليوم"، وأن نحافظ على أولوية الروح وسيادته: "اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه".

هذه هي تماماً "العفّة" التي يختم بها المرنّم، وهي أن نتناول كلّ ما في العالم ولكن بشروط ثلاثة هي: أوّلاً أن نشكر السبب، أي الواهب ونتذكّره؛ وثانياً أن نتناوله بأفضل ما يمكن وذلك بتطوير البحث العلمي والإبداع والعقل؛ وثالثاً أن نعرف لماذا نتناوله، أي بكلمة واحدة ومختصرة أن نذهب بالكون إلى غايته، أي نرفعه لله ملكوتاً. لقد أخذناه منه هديّة فنعيده إليه تسبحة شكر.

هناك إذن طريقتان لمعرفة الحقائق في الحياة. أوّلها الطريقة المبتورة والضيّقة وهي البحث الكوني والعلمي دون نظرة أشمل إلى الحقائق السببيّة للكون. وهناك الطريقة الثانية وهي الكشف الإلهيّ. الذي يفسر البدايات والنهايات والأسباب والغاية. كما يوصي وينمي ويقوي البحث والعلم لكي يتمّ استخدام الحقائق بأفضل ما يمكن، ألا وهي ثمينة في نظر الله.

الطريقة الأولى تبدأ من الكون وتنتهي فيه. والطريقة الثانية تبدأ من الله وتنتهي إليه. الطريقة الأولى تطرد الله خارجاً. الطريقة الثانية تحتضن العالم وتجعل الله حاضراً فيه. الطريقة الأولى هي إبداع بشريّ، والطريقة الثانية هي كشف إلهي. بين المجوس والبتول تظهر المفارقة واضحة. هؤلاء كانوا بحّاثة دون حكمة، وتلك كانت شابة عادية ولكن بحكمة إلهية. ولقد قاد النجم هؤلاء إلى تلك. وسار التاريخ الكوني بتدخّل إلهيّ إلى غايته، ليجد الحكمة الإلهيّة. لقد قاد الله النجم وهو أداة البحث لتقود البحاث إلى غاية البحوث. قد يتضمّن العلم أخطر جرثومةِ جهلٍ، وهي أن نجهل البداية والغاية اللذين جاء بهما الكشف الإلهيّ لذلك يصرخ المرنّم:

"افرحي يا استنارة مسارّي الثالوث".